كلمةُ البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيسِ جامعةِ القدّيس يوسف، في حفل افتتاح "قاعة سابا قيصر زريق الثقافيّة" في مركز الدروس الجامعيّة في لبنان الشمالي – جامعة القدّيس يوسف راس مسقا، مدخل طرابلس الجنوبي، يومَ الثلاثاء الواقع فيه ٢٣ أيّار (مايو) ٢٠١٧، الساعةَ الرابعة والنصف ب.ظ.

ها نحن مجتمعون في هذه الأمسية لنفتتح معًا في جامعتنا اليسوعيّة، وتحديدًا ها هنا في طرابلس والشمال، قاعة "عربيّة الشكل والمحتوى تقدمة من مؤسّسة شاعر الفيحاء طرابلس الأستاذ الشاعر والمربّي سابا زريق" الذي عاش ما بين السنوات ١٨٨٩ و١٩٧٤ علمًا مميّزًا من أعلام لبنان الثقافيّة والأدبيّة والفكريّة والوطنيّة. وإذا كان اسم سابا يعني بالسريانيّة الشيخ القديم والحكيم، فإنّ الجامعة اليسوعيّة، وهي التي عملت وما زالت تعمل من أجل إعلاء العربيّة الفصحى بيانًا وبلاغةً ومعنىً، فإنّها تفتخر بأن تستقبل هذه القاعة، "قاعة سابا زريق الثقافيّة"، بمعنى أنّها سوف تمدُّ الزائر لها، أكان أستاذًا أم طالبًا أم مربيًّا يريد الاستزادة من العلم، بالكثير من المعرفة الإنسانيّة والروحيّة المتراكمة منذ أجيال في عالمنا العربيّ الإسلاميّ والمسيحيّ في ظروف أصبح العلم مجرّد معلومات وظيفيّة وحسب، وكذلك لاكتساب الكثير من الحكمة التي هي دعوة للاحتكام إلى الضمير وإلى أهل الخير والفضيلة والقِيَم الإنسانيّة المشتركة إذ نحن بأمسّ الحاجة إليها في وقتٍ طغت العصبيّات لا على السلوك والممارسات فقط، بل على التفكير أيضًا وزادت على ذلك الحسابات السياسيّة الضيّقة التي أخذت الدين والطائفيّة رهينة المحاصصات وطريقًا للهيمنة والتسلّط.

ألم يقل شاعر الفيحاء قولاً ثقافيًّا محقًّا في النظرة إلى الدين والطائفيّة لا يزال وقعه بيننا حتى اليوم :

"الدين – إن كنتم على دينٍ – يحضُّ
على التآخي، والتضامن مرشدًا،
فعلام تتّخذون منه عدّةً
لتناحرٍ متأصّل بلغ المدى."

وفي مكتبة ومساحة سابا زريق الثقافيّة، نحن على موعد مع الثقافة في زمن ضَمُرت فيه المساحة الثقافيّة الإنسانيّة المشتركة لتصبح نوعًا من الاقتتال بين مساحات ضيّقة تدمّر البشر والشجر والتراث والتقليد الصحيح بدل العمل على تنمية الإنسان والعلاقات البشريّة بعضها مع البعض الآخر. لستُ هنا بوارد الدخول في تحديد ماهيّة الثقافة، وهو مصطلح له ما له من التعاريف والاستخدام. إلاّ أنّ ما نكتفي به في هذه المناسبة هو تلك الثقافة التي تهدف إلى تحسين المهارات الفرديّة للإنسان لا سيّما من خلال التعليم والتربية وكذلك إلى تحقيق قدر وافٍ من التنمية العمليّة والروحيّة للإنسان والتوصّل إلى رخاءٍ وسلام قوميّ وقِيَم عليا يتشارك فيها الجميع. ونقول إنّ مساحة زريق هي ثقافيّة بمقدار ما تكون عاملة على ثلاثة أبعاد هي التالية :

١- التذوّق المتميّز للفنون الجميلة والآداب العربيّة شعرًا ونثرًا،

٢- إعلاء شأن المعرفة البشريّة والاعتقاد والسلوك القائم على التفكير والتعليم الإجتماعي،

٣- وأخيرًا تأكيد الاتّجاهات والقِيَم والأهداف والممارسات المشتركة التي تميّز الجماعة اللبنانيّة بكلّ مقوّماتها.

مقوّمات هذه الثقافة هي رأسمالنا في هذه المساحة الجغرافيّة التي أودعنا الله إيّاها فنعبده ونحمده ونضع معًا عليها تاريخًا مشتركًا جوهره الميثاقيّة اللبنانيّة في مختلف تجلّياتها وآخرها في دستور ١٩٨٩ الذي يجمع ما بين قاعدتين جوهريّتين متلازمتين هما : أوّلاً العيش المشترك الذي يناقض التقسيم والفرز الجغرافي والتلاعب في الوضع السكّاني بمختلف أشكاله. وهذا العيش المشترك هو مسؤوليّة المجتمع نفسه أي المجتمع الأهلي والمجتمع المدني، أي نحن، قبل أن يكون مسؤوليّة الدولة التي أمّنت دستوريًا الضمانات الحقوقيّة للجماعات الروحيّة التي تشمل ضمانات الحريّة الدينيّة والثقافيّة والمشاركة، إذ إنّ على قيادات المجتمع المدنيّة والدينيّة أن تعمل على إرساء ثقافة الحوار الصريح والاحترام المتبادل للعقائد وللمراجع الرمزيّة وثقافة قبول الآخر لا كمجرّد شخص هامشيّ في الوطن بل كشريك له كامل الحقّ والواجب في أن يحمل الهويّة الوطنيّة والدفاع عنها مثله مثل الإنسان الآخر.

أمّا القاعدة الثانية التي نستخرجها من دستور ١٩٨٩ وهي جزء أساسيّ من ثقافتنا الوطنيّة هي قاعدة للمواطنيّة للجميع إذ إنّ للجميع، كلّ الجميع، الحقوق نفسها في الصحّة والتعليم والتعبير والمشاركة في إدارة الحياة المدنيّة وأن يكون لديهم مسؤولون سياسيّون وحكومة يعملون لصالح الناس وكذلك للجميع واجبات أقلّها احترام رموز الدولة والإسهام بكلّ ما يتوجّب عليهم في موارد الدولة وتعزيز المصلحة العامّة والخير العام. إلى أنّ ما يميّز مبدأ المواطنة اللبنانيّة هو أنّها، بفضل المدى الديموقراطي التي تدعو إليه والنظام الذي يترجمه إلى واقع عبر قانون الانتخاب النيابي على سبيل المثال، تجعل

من التعدّديّة اللبنانيّة تعدّديّة متداخلة، منفتحة على بعضها البعض، لا تعدّدية قبائل أو مذاهب منفصلة عن بعضها البعض. فكيف لا نعمل معًا لتحقيق هذا الحلم اللبناني عِبرَ إرساء ونشر ثقافة الإصغاء للآخر عبر التثقيف والتعليم وقراءة الأقدمين. وكيف لا نفتح أبوابنا الجامعيّة أمام قراءة كتب المشاهير بمختلف أنواعها الأدبيّة لكي نستلهم من قراءتها والبحث بين أوراقها أفكارًا تساعد على صياغة تلك الأبعاد والمقوّمات الثقافيّة التي تدعم الخصوصيّة التعاقديّة اللبنانيّة التي قيل عنها إنّها تشكّل بلدًا اسمه لبنان هو أكبر من وطن، لا بل رسالة إنسانيّة في التعدّديّة والحريّة والمواطنيّة للعالم كلّه وكيف لا نفتح أبوابنا الجامعيّة أمام مصادر الفكر والأدب الكلاسيكيّ العربيّ والعالميّ بالعربيّ الفصيح لكي يستلهم منها الهاوي والباحث والمتخصّص فيكتب بدوره دُررًا في البيان والفكر. فيستمرّ النبوغ اللبناني في دفقه وعطائه، في وقت جفَّ فيه سيلُ الفكر والأدب والشعر أمام هجمة التكنولوجيّات والرقميّات من كلّ حدبٍ وصوب فأصيبت اللغة العربيّة لا بل اللغات كلّها إصابات هامّة في الصميم فاصبحت أداة وظيفيّة تُستخدم للتعبير الآني ليس إلاّ وبمختلف الأشكال البعيدة عن القواعد التي نحتتها الأجيال.

أيّها الأحبّاء إنّي إذ أطرح هذه الأسئلة عليكم وعلى نفسي، فإنّي أستذكر في الوقت عينه الدور الكبير الذي قام به اليسوعيّون تجاه الآداب العربيّة حيث كانوا من الأوائل الذين حفظوا المخطوطات الثمينة. فمكتبتنا الشرقيّة في الجامعة في بيروت تحتوي على أكثر من خمسة الآف مخطوط عربي اللغة دلالة على محبّة اليسوعيّين لها أكانوا شرقيّين أم غربيّين جمعها لويس شيخو وغيره من مختلف الأصقاع والبلدان. ولم يكتفوا بتجميع المخطوطات بل إنّهم نشروا منها البديع والفاخر، ومن منّا لم يقرأ في "مجاني الأدب في حدائق العرب" في أجزائه السبعة وهو لا زال ينشر حتّى أيّامنا هذه. وإلى جانب شيخو

من منّا لم يسمع بالآباء خليل إدّه وهنري فليش ولامنس وبويج وخليفة وحشيمه وتوتل، مصنّف أعلام المنجد، واللائحة تطول حتّى إنّ الأب كميل حشيمه قد صنّف مؤلّفات باللغة العربيّة لأكثر من مئتي يسوعيّ منذ بداية القرن السابع عشر حتى اليوم.

إنّ إسهام اليسوعيّين وطلاّبهم في إعلاء شأن العربيّة الذي كان له السند الجامعي في معهد الآداب الشرقيّة ومعهد تعليم اللغة العربيّة لغير الناطقين بها يتواءم مع ما قاله يومًا شاعر الفيحاء في العربيّة الفصحى إذ رفع الصوت مناشدًا :

"أنخجل بالفصحى وحرّ بيانها
أمام لسان العجمة المتلجلج
أنقضي عليها وهي في آخره درة
بأجيالنا من عقدنا المتدحرج."

إنّ من مقوّمات وحدتنا اللبنانيّة هي هذه العروة الوثقى الثقافيّة التي اسمها اللغة العربيّة فلا غنى عنها وإن اكتسبنا اللغات الأجنبيّة وأصبح البعض منّا ضليعًا بها وقادرًا عليها.

فشكرًا للأستاذ سابا زريق الحفيد والخرّيج من حقوق اليسوعيّة الذي تماهى اسم القاعة والمكتبة والمساحة مع اسم سابا زريق الجدّ الذي طبع ساحتنا الأدبيّة العربيّة بطابعه وثقافته التي لَمْ تكن ثقافة جامدة أو بعيدة عن الواقع أو عن الحياة بل إنّها تداخلت معه ومعها وفرضت نفسها ثقافة لنا نعمل بها ونستمرّ على خطاها.

فهنيئًا لكم أبناء الشمال وطرابلس الفيحاء،
وهنيئًا لك الجامعة اليسوعيّة،
عشتم وعاش لبنان.